طبقات المجتمع في المغرب الأوسط
خلال القرنين الخامس و السادس الهجريين

برحو بوسيف
دكتورالي/ جامعة ابن خلدون/ تيارت

الملخص:

برغم كل ما يمكن قوله عن المساواة بين الناس في الإسلام، حكاما كانوا أو محكومين، هاته المساواة التي تجسدت فعليا في الدولة الإسلامية، خاصة في عهدها الأول في ظل حكم الخلفاء الراشدين، إلا أنه و مع ظهور الدولة الأموية و بداية حكم الأسر و توارث الملك حتى صارت الدولة تسمى باسم العائلة الحاكمة، فإن مبدأ المساواة بدأ يقل تدريجيا ليترك المجال لبروز الطبقية المجتمعية، وغدونا نقسم المجتمع إلى طبقة حكام، ونبلاء أو مقدمين أصحاب المقامات المرموقة ، و بسطاء و عبيد وغير ذلك.

Abstract :

Despite all that can be said about the equality of people in Islam, this equality that was embodied in the Islamic State, especially in the first era under the rule of the rightly guided Caliphs, but with the emergence of the Umayyad state and the beginning of the rule of families, Until the state became known as the ruling family, the principle of equality gradually began to diminish to allow the emergence of social class . And we divide the society into a class of rulers, nobles or the owners of prestigious positions, and simple and slaves and others.

الكلمات المفتاحية : المغرب الأوسط/الحماديون/ المرابطون/ الموحدون/ الفئة الحاكمة/ الفقهاء/ المهن/ أهل الذمة

عرفت الدولة الإسلامية بعد نهاية الخلافة الراشدة، حضورا طبقيا جليا قسم المجتمع إلى مجموعة من الطبقات لم يكن لها نفس الحقوق والواجبات. ولم تخرج دول المغرب الأوسط عن هذه القاعدة، حيث نجد مثلا في الدولة الحمادية طبقة الحكام تتميز تميزا واضحا عن سائر الطبقات الأخرى سواء من حيث المسكن أو الملبس ومختلف مناحي الحياة، لذلك لم يكن غريبا أن الأمراء الحماديين انفصلوا عن الرعية حتى في دور العبادة ولم يصلوا معهم في نفس القاعة، ولقد كان للعلماء و الفقهاء مكانة رفيعة في الدولة الإسلامية في العصر الوسيط اكتسبوها من حاجة الحكام إليهم ومن مكانة الدين في قلوب الناس، أما الطبقات الأخرى وبرغم أهميتها فلم تحظ إلا بالقليل من الحقوق في مقابل الكثير من الواجبات.

اولا: الفئة الحاكمة:

يعتبر الحديث عن هذه الفئة من الصعوبة بمكان بحيث يختلط الجانب السياسي مع الجانب الاجتماعي، كون أكثر المتتبعين لشأن هذا الفئة يركزون في الغالب، على حياتهم السياسية وإنجازاتهم أكثر من أي شيء آخر، و ما يزيد الأمر تعقيدا هو أن المغرب الأوسط دخل في الفترة المعنية تحت حكم ثلاث د ول متعاقبة وهي الدولة الحمادية - المرابطية – الموحدية، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أكثر من ذلك، إذ أن جزء من المغرب الأوسط دخل تحت سلطة المرابطين وذلك تزامنا مع الحكم الحمادي للبلاد، ومع ذلك تبقى الدولة الحمادية هي دولة المغرب الأوسط الأصيلة لسببين : أولهما أن الحماديين هم من أبناء المغرب الأوسط الأصلاء، وثانيهما أن العاصمة السياسية للحماديين كانت بالقلعة، ثم ببجاية، وهما حاضرتان من حواضر المغرب الأوسط.

مثل الصراع على الحكم والظفر بشرف قيادة صنهاجة تفسيرا مقبولا للصراعات والانقسامات الداخلية التي شهدتها هذه القبيلة، إلا أن لب هذا الصراع كان اجتماعيا واقتصاديا من أجل اعتلاء قمة التنظيم الاجتماعي، والسيطرة على المسارح ومصادر المياه والاستئثار بأكبر قدر من الغنائم والأسلاب على أن هذا الصراع سرعان ما يتلاشى أمام الأخطار الخارجية[1].

وقد شكلت تلكاتة أكبر بطون صنهاجة المغرب الأوسط، التي ينتسب إليها بنود حماد حكام المغرب الأوسط في الفترة من سنة 408 هـ/1018 م إلى سنة 547 هـ/1152 م، وامتدت مواطن جمهورها بجوار كتامة، وكانت لها الزعامة على سائر صنهاجة الشمال ليس لوفرتها العددية فحسب، بل لاشتمالها على ثلة من القواد الكبار، الذين عملوا على لم شملها وتوحيد صفوفها ووضعوا النواة الأولى لجيش صنهاجي سرعان ما تحول إلى قوة عظمى، أضفى عليها هيبة كبيرة وامتد سلطانها إلى المناطق المجاورة[2].

حكم بنو حماد المغرب الأوسط من سنة 408 هـ إلى سنة 547 هـ، وخلال هذه الفترة تعاقب على العرش الحمادي تسعة أمراء : حماد مؤسس الدولة و ثمانية أمراء آخرون ينقسمون إلى ثلاثة فروع الفرع الأول ينتسب إلى القائد بن حماد، ويشتمل على القائد وابنه محسن والفرع الثاني ينتسب إلى محمد بن حماد ويمثله أمير واحد هو بلقين بن محمد، والفرع الثالث ينتسب إلى علناس بن حماد، ويضم خمسة أمراء : الناصر بن علناس، والمنصور بن الناصر، وباديس بن المنصور، والعزيز بن منصور ويحي بن العزيز[3].

و للوقوف على بعض من جوانب الحياة الاجتماعية لهذه الفئة أورد ما ذكره صاحب الاستبصار في كتابه حين قال:" وكانت لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة يغلون في أثمانها تساوي العمامة خمسمائة دينار وستمائة دينار وأزيد ، وكانوا يعممونها بأتقن صنعة فتأتي تيجانا وكان ببلادهم صناع لذلك يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين، وأزيد " [4]. وفي هذا النص جملة من الاستنتاجات التي يمكن أن نخرج بها حول لباس الفئة الحاكمة في الدولة الحمادية ومنها لبس العمامة التي كانت أشبه إلى تاج الملك وقد ورثوها عن العبيديين[5] . كما أن مغالاتهم في أثمانها يدل على حياة البذخ التي كانوا يعيشونها فالذي يجعل لرأسه عمامة من ستمائة دينار لا بد أن لباس جسده سيكون أغلى من ذلك بكثير. وعليه فلا غرابة إذا علمنا أنهم كانوا ينتعلون نعالا مشدودة بسيور مذهبة[6].

وعن مساكنهم يقول صاحب الاستبصار:" وفي بجاية موضع يعرف باللؤلؤة ... فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراؤون أحسن منها بناء، ولا أنزه موضعا، فيها طاقات مشرفة على البحر، عليها شبابيك الحديد ... والجالس المقرصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها، قد نقشت أحسن نقش، وأنزلت بالذهب واللازورد "[7] وربما تكفي هذه الشهادة للوقوف على المستوى الرفيع من العيش الذي كانت الفئة الحاكمة تحياه، حتى استرخصوا الرخام والذهب واللازورد فزينوا به كامل جدرانهم.

ولقد كان الأمراء الحماديون يخرجون في العيدين للصلاة بالناس، لكن الغريب في الأمر أنهم كانوا لا يصلون معهم في حجرة واحدة، بل مفصولين عنهم في مقصورات خاصة على عادة العبيديين[8].

ومنه نخلص إلى أن هذه الطبقة قد ارتقت في كل مناحي العيش عن العامة، سواء في الملبس أو المأكل أو المسكن، ونأت عنها اجتماعيا حتى في د ور العبادة، في مظهر صارخ من مظاهر الطبقية.

أما فيما تعلق بالمرابطين فقد اختلفت وضعية الجيل الأول عن وضعية الجيل الثاني، إذ ظل الأول وفيا لروح العصبية، محافظا على تراثه الصحراوي إلى جانب خشونته، وبداوته وتقشف في المأكل والملبس واقتصاره على الضروري من العيش، فكان لباس يوسف بن تاشفين من الصوف وطعامه خبز الشعير بالماء أو لبن الإبل و لحومها، لكن الحالة تغيرت مع ابنه علي الذي مثل مرحلة الحضارة، والترف فأصبح التأنق في الأطعمة عادة مألوفة لدى الأمراء، كما تفننوا في اللباس، فقلدوا العباسيين في اتخاذ لون السواد في ألبستهم التي شملت اللثم، والغفائر القرمزية، والعمائم ذات الذؤابات، وحملوا السيوف المحلاة وأصبح اللثام يرمز إلى وضع اجتماعي متميز[9].

ولم يقتصر تأنق الأمراء المرابطين في الملبس والمطعم، بل تعداه لتشييد القصور، والمباني فتفنن المهندسون في زخرفة القصور، ومختلف الأبنية التي ينزلها الأمراء في أواخر العهد المرابطي وامتلأت قصور الأمراء بالعبيد والخدم والإماء والجواري من الإفرنج، والسودان، وكانوا من الكثرة ما جعلهم يقسمون حسب خدماتهم داخل البلاط واقتصر عمل بعض العبيد على خدمة الأميرات[10]. وتجلت مظاهر الترف لديهم حتى في التعليم، فقد جلبوا لأبنائهم بعض المؤدبين لتأديبهم داخل القصور، واختاروا لهم أجود المدرسين، وكان من الأمراء من تطاول على حرمة مدرسه[11] وذلك ربما يشير إلى الغرور الناتج عن سطوة الملك التي صارت للمرابطين.

وقد تمتع أبناء الأسرة المرابطية الحاكمة بوضع متميز، ليس في العاصمة فقط، بل في سائر المدن المغربية، وقد تأكد ذلك حين عمد يوسف بن تاشفين إلى تقسيم أقاليم المغرب على بنيه وأمراء قومه[12].

أما الموحدون فقد كان لقبيلة كومية مكانة خاصة في دولتهم، وذلك بانتماء عبد المؤمن بن علي إليها، والذي اتخذ من أفراد قبيلته بطانة له، ومنهم كان وزيره عبد السلام بن محمد الكومي كما استوزر ابنه عمر، وبقي كذلك إلى أن مات عبد المؤمن، وبهذا فإن أسرة بني عبد المؤمن وقبيلته كومية شكلوا أهم أفراد المجتمع في عهد الموحدي[13].

ثانيا: العلماء و الفقهاء:

تمتعت فئة الفقهاء والعلماء بمكانة اجتماعية طيبة في مجتمع الحماديين، على أن هذه المكانة لم ترق إلى ما وصله الفقهاء من مكانة في الدولة المرابطية ، ولقد عرفت المدن الحمادية ظاهرة الإيمان بالأولياء بكثرة لاسيما في بجاية التي كانت تسمى لفترة طويلة (مكة الصغيرة) وذلك لكثرة الأولياء بها ويقال إن عدد الأولياء ببجاية تسعة و تسعون واليا[14]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على التقدير الكبير الذين كانت تحظى به هاته الفئة – العلماء والفقهاء – في نفوس الناس وعقولهم.

و بالنسبة للدولة المرابطية فقد احتلت فئة الفقهاء مكانة مرموقة، وظهر لهم نفوذ في مجريات الأمور والسر في ذلك هو أن دولة المرابطين قامت على أساس ديني، تمثل عندهم في دعوة عبد الله بن ياسين الإصلاحية، والقادة الأوائل للدولة تربوا في رباط عبد الله بن ياسين حيث درسوا أسس الدين الصحيحة وعليه كان المبدأ الديني هو القاعدة الأساسية التي ترتكز عليها الدولة في سياستها، و بالتالي فإن القائمين على شؤون الدين، والمشتغلين بعلومه احتلوا مكانة مرموقة في المجتمع، بالإضافة إلى ما كان لهم من التكريم والتقدير من جانب أمراء المسلمين في دولة المرابطين، الأمر الذي زاد من مكانتهم ونفوذهم حتى أصبحوا يؤثرون في مجريات الأمور بالدولة[15].

وباعتبار الدولة المرابطية دولة قوامها الجهاد في سبيل الله، ومقارعة الأعداء، وبأن جانبا كبيرا من اقتصادها يعتمد على الغنائم التي توفرها حروبهم المتواصلة، فلا غرو أن يتعاظم شأن الفقهاء داخل الدولة، كونهم كانوا يعتبرون المنظرين لسياسة اقتصاد المغازي التي نهجها المرابطون، والعارفين بأحكام الغنائم والخراج والجزية وغيرها من الأحكام الفقهية، وهم الذين يدعمون بفتاواهم توجهات الأمراء إذ يضفون عليها صبغة من الشرعية، وعليه فقد اكتسبوا ثروات طائلة من جراء تحالفهم مع النظام المرابطي فقد أجرى عليهم يوسف بن تاشفين الأرزاق من بيت المال طول أيامه، كما أن ابنه علي كان شديد التعظيم و الإجلال لهم[16] .

وقد كان من الفقهاء من تسنموا كثيرا من المناصب السامية في الدولة فكان منهم الوزاراء وبطانة الأمير، ومستشاروه، كما كان القضاء بأيديهم، ولقد تمتع القضاة من الفقهاء بسلطان عظيم خاصة حين منحهم يوسف بن تاشفين سلطة مطلقة، وأصبح حكم القاضي نافذا لا يرد وبسبب هذه المكانة المرموقة فقد قصدهم الناس متقربين، طالبين لشفاعتهم، حتى أن الشعراء قصدوهم مادحين مشيدين بفضلهم[17].

وتبعا لكل ما قيل فإن الفقهاء والعلماء قد عاشوا حياة البذخ والترف، فقد سكنوا الدور الفخمة وأحيانا القصور، التي فاقت قصور بغداد جمالا و روعة، وملكوا العبيد والمماليك وتأنقوا في المأكل والملبس ، وركوب فاره الدواب وتسروا بالنساء، واستغلوا نفوذهم الروحي في البيع والشراء[18].

أما بالنسبة لمكانة هاته الشريحة – العلماء والفقهاء – بعد دخول المغرب الإسلامي في ظل حكم الموحدين، فقد نزلت قليلا عما كانت عليه إبان الحكم المرابطي، وذلك لأن الدولة الموحدية قامت على أساس محاربة تسلط الفقهاء وجمودهم الفكري، كما أن ابن تومرت عمد في المرحلة الأولى من حياة الدعوة إلى توزيع السلطات، والمسؤوليات على هيئة الطبقات التي ابتكرها، ومن ثمَّ لم يدع فرصة للعلماء وغيرهم من فرض نفوذهم وسيطرتهم على شؤون الدعوة[19].

وكان ابن تومرت قبل ذلك من أشد الناقمين على الفقهاء الذين انحرفوا عن المسار الصحيح حتى ثار العامة ضدهم، وقد وصفهم بأقبح الصفات، وكان ينعتهم بأولياء الشيطان على أنه وإن قلصت سياسة ابن تومرت من سلطتهم وصلاحياتهم، فمكانتهم ظلت دوما في مكان عليّ ذلك أن الفقهاء على مرّ الأزمان محطّ احترام من الناس، يأخذون مكانتهم وهيبتهم من مكانة وهيبة الدين في قلوب الرعية[20].

ولقد حظي الفقهاء والعلماء المشتغلون بمذهب الدولة بمكانة ومنزلة رفيعة، وكان الخلفاء الموحدون يسبغون عليهم من رعايتهم، فكان عبد المؤمن يقدرهم وينزلهم المكانة اللائقة بهم، وكان يؤثرهم على غيرهم، وسار على دربه ابنه يوسف في معاملتهم معاملة كريمة فكان حريصا على مجالستهم، ومحادثتهم وكان مهتما بجلب العلماء إلى عاصمته، والاستفادة من علمهم، وقد دأب كثير من الخلفاء الموحدين على إظهار التواضع للعلماء، وتقديرهم ومن ذلك إتباع جنائزهم، كما أغدقوا عليهم الأموال والعطايا حتى تحول كثير منهم من الضنك إلى الرخاء، ومن الفقر إلى الثراء[21].

ولما كان مذهب ابن تومرت مذهبا غريبا مستحدثا ، فلا غرو أن العلماء الذين استهجنوه ودافعوه قد لقوا في حياتهم أشد صنوف التنكيل والقهر، على غرار كل المعارضين في التاريخ ويمكن استخلاص مكانة فقهاء المالكية الذين تمسكوا بالنهج الصحيح من خلال رأي ابن تومرت فيهم حتى قبل قيام دولته وهو الذي وصفهم بالكفر والتجسيم والخروج عن الدين، ولم يتورع لحظة في مجاهرتهم بالعداء والحقد عليهم.

ثالثا: أصحاب المهن:

لا بد أن البحث عن هذه الفئة وأدوارها ومكانتها الاجتماعية بالمغرب الأوسط يعد تحديا كبيرا لأي باحث حيث أن المصادر كانت شحيحة في الحديث عن ذلك وحتى الدراسات الحديثة لم تتناول ذلك بإسهاب يشفي غليل القارئ فما بالك بالباحث، وليس هناك إلا إشارات طفيفة تحوم حول الموضوع خاصة ما تعلق بمكانة هذه الفئة، وتأثيراتها داخل الدولة الحمادية، وحتى ما تعلق بالفترة المرابطية أو الموحدية فقد دأب المؤرخون خاصة المعاصرين منهم على التركيز على منطقة المغرب الأقصى باعتباره مركز الحكم، وعليه لا مناص من التركيز على بعض المهن التي عاصرت الفترة المعنية بالبحث في محاولة للإشارة إلى أصحابها.

وقد ساهمت عملية إنشاء المدن الجديدة في تلك الفترة على بروز الدور الهام لأصحاب المهن من بنائين وتجار وحدادين وغيرهم، الذين ساهموا بحق في عملية إعمار هذه المدن وتطويرها، ومنه فقد شهدت الفترة التي تلت تأسيس أشير، وبعد أن استبحر عمرانها أن قصدها التجار من القاصية وامتهن أهلها بعض الحرف، كالحدادة والنجارة والنسيج والصياغة والدباغة وصناعة الأسلحة التي عرفت رواجا كبيرا بين الصنهاجيين، لاسيما أن منهم من له باع طويل في هذا المجال خاصة أهل طبنة والمسيلة وحمزة وتلمسان الذين رحلوا إلى أشير، والذين تمرسوا على حياة التحضر في مواطنهم الأصلية، مما أضفى حركية كبيرة على المدينة وأدر أموالا طائلة على أهلها لاسيما التجار والصناع منهم، إضافة إلى الفلاحين الذين اشتهروا بكثرة إنتاجهم خصوصا بعد أن أشرف زيري بن مناد على حماية زروعهم وتأمينها من غارات زناتة[22].

ولأن المغرب الأوسط بلد زراعي، ورعوي بالدرجة الأولى فلا غرابة أن مهنة الزراعة، والرعي كانت لهما مكانة كبرى بين أوساط السكان، ذلك أن هذه المهنة غالبا ما مثلت مصدر الدخل الوحيد لكثير منهم، بالإضافة إلى ما كانت تدره على أصحابها من أموال معتبرة، نتيجة لعملية بيع المحاصيل التي لم يقتصر بيعها، و الاتجار بها على حدود المغرب الأوسط فقط، بل تعدتها إلى البلدان الأخرى.

ومن أهم المحاصيل التي كان سكان المغرب الأوسط يزرعونها الحبوب، خاصة القمح والشعير[23] والزيتون[24] الذي كان من أهم المحاصيل، وكان يستخرج منه الزيت، الذي كان من أهم المواد المصدرة وكان زيت الزيتون يوضع في الجرار، والزقاق(القرب)، وكانت أخف القرب تصنع من جلد النعجة أو العنزة أما أثقلها فتصنع من جلد الكبش، أو التيس، وفي هذا إشارة إلى مهنة وحرفة امتهنها السكان وكانت من الأهمية بمكان، بحيث لا يستقيم بيع الزيت و تصديره إلا بالاستعانة بها[25].

ومن المحاصيل التي كانت تعرف رواجا كبيرا - ولا زالت – التمور[26]، كما في بسكرة وبلاد الزاب عموما كذلك مختلف الفواكه الأخرى، مثل التين[27] الذي كان يعمل منه شرائح مثل الطوب، ويحمل من المغرب الأوسط إلى كثير من الأقطار، كذلك السفرجل الموجود بكثرة بتنس وشرشال[28]، وتهرت التي كان سفرجلها من أجود أنواع السفرجل[29]، كما امتهن أهل بلاد المغرب الأوسط إنتاج العسل و السمن[30]. و بالإضافة إلى الزراعة فقد احترف السكان تربية المواشي، وذلك لطبيعة البلاد الزراعية الرعوية ومن ذلك تربية الخيول التي كانت تتعاطاها زناتة وصنهاجة على حد سواء[31]. والأكيد أن هذه المهنة لم تقتصر على هاتين القبيلتين فقط ذلك لما مثلته الخيول خاصة في العصر الوسيط ،كونها كانت بدون مبالغة عدة الجيوش الأهم، إذ لا يمكن تخيل جيش بلا خيول وذلك مصداقا لقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لهم اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[32].

كما امتهن السكان تربية البقر والغنم، في سائر مناطق المغرب الأوسط في جيجل والجزائر وبونة والمسيلة وطبنة وتدلس وتاهرت وغيرها، كما راجت بالجنوب تربية الإبل[33]. ومن الملفت للانتباه أن تحافظ تاهرت الحديثة والمعاصرة(تيارت) على حرفة تربية الخيول رغم كل التغيرات، والظروف التي مرت بها المنطقة، حتى أنها اشتهرت بتربية نوع من الخيول سمي في ذلك الوقت بالبراذين.

أما الصناعة فلقد توفرت لها كل الظروف لقيامها ورواجها، من ثروة زراعية وأخرى حيوانية بالإضافة إلى ما يزخر به المغرب الأوسط من معادن، كما أن طول الشريط الساحلي كان بدوره عاملا من

عوامل قيام بعض الصناعات، وقد وجد بالقلعة أنواع من الصناعات، وبها معامل لنسج الأكسية القلعية المطرزة بالذهب، والسجاجيد والملابس الفاخرة[34].

كما كان ببجاية فخارين، وخزافين، وزجاجين[35]، كما عرفت هذه المدينة صناعة السفن والمراكب الحربية التي لطالما استعملها أهل المغرب في حروبهم[36]. و هناك من احترف تحويل الفضة، والبرونز إلى أواني مختلفة، ومنها المصابيح وحاملات الشموع والأباريق، ودلال القهوة، وزينات الأبواب، والأثاث ومقابض الأبواب ومطارقها كما ساهم توفر مادة الخشب في رواج مهنة النجارة[37].

أما التجارة فلقد كانت أبرز الأنشطة الاقتصادية، ولقد قامت ببلاد المغرب الأوسط تجارة نشيطة كانت تتناقل داخليا وخارجيا، ومن أهم مراكز التجارة بجاية، وقلعة بني حماد وقسنطينة، وتاهرت والمسيلة، والجزائر، ولقد انعكس ازدهار التجارة بهاته المدن على سكانها حيث أنهم كانوا في غالبيتهم مياسير الحال[38]، كما مثلت تلمسان أحد المراكز الرئيسية في تجارة السودان إبان حكم المرابطين، وكانت بمثابة نقطة تفضي إلى افريقية والمشرق و لأندلس وحوض المتوسط، وهذا ما جعل الحياة تدب في هاته المدينة بفضل ما تمتعت من موقع استراتيجي وتجاري[39].

وخلاصة القول أن التجار شكلوا حلقة مهمة جدا لا بد منها في المجتمع وذلك بأنهم كانوا همزة الوصل بين الإنتاج والاستهلاك، فعن طريقهم يتم البيع والشراء، وغالبا ما كان محترفو التجارة من المياسير، حتى أن يسر حالهم، وثراءهم الذي حصلوه من التجارة أكسبهم مكانة مهمة عند الموحدين على غرار الدول المتعاقبة على حكم بلاد المغرب[40].

رابعا: أهل الذمة:

يكاد يجمع الكثير من المؤرخين ومنهم إبراهيم القادري بوتشش[41] على أن أهل الذمة لم يحظوا في المصادر التاريخية سوى بمعلومات هزيلة، وأخبار شحيحة ومبعثرة، حيث أن المؤرخين العرب عزفوا عن التأريخ لهم، ولم يشيروا إليهم في ثنايا كتبهم إلا بأنصاف الكلمات، بل لم يجدوا غضاضة في التكتم على أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية و الدينية.

وأهل الذمة هم المواطنون من غير المسلمين الذين يقيمون في دار الإسلام من اليهود والنصارى وأعطوا الأمان، لهذا سمي المعاهد ذميا، فالذمة في الفقه الإسلامي هي العهد الذي يعطى للقوم عند فتح المسلمين لبلادهم، فلا يُسترقّون، و يؤمّنون على حياتهم وحريتهم ، ثم على أموالهم ليقروا بها في دار الإسلام[42]. فوضع أهل الذمة في المجتمع الإسلامي يحدده قول الله تعالى :﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [43]. وسميت الجزية بهذا الاسم لأنهم يجزون بها جزاء تأمينهم في دار الإسلام والدفاع عنهم ويختص عقد الذمة بالإمام أو نائبه، ولا ينتقص عهدهم طالما أنهم يوفون بما اشترط عليهم من أداء جزية معينة [44]. ويرى البعض أن الشروط[45] المترتبة على عقد الجزية نوعان مستحق، ومستحب والمستحق:

-أن لا يذكروا كتاب الله بطعن ولا بتحريف.

-أن لا يذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيب ولا بازدراء.
-أن لا يذكروا دين الإسلام بذم له ولا بقدح فيه.
-أن لا يصيبوا مسلمة بزنا، ولا باسم نكاح.
-أن لا يفتنوا مسلما عن دينه، ولا يتعرضوا لماله، ولا لدينه.
-أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يَودّوا أغنياءهم.
و أما المستحب فستة أيضا:
-تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار.
-أن لا يعلون على المسلمين في الأبنية ، ويكونوا إن لم ينقصوا مساوين لهم.
-أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم، ولا تلاوة كتبهم ولا قولهم في عزيز المسيح.
-أن لا يجاهروهم بشرب خمورهم ، ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم.
-أن يخفوا دفن موتاهم، ولا يجاهروا عليهم بندب ولا نياحة.
-أن يمنعوا من ركوب الخيل، ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير.

ولقد كان لأهل الذمة في بلاد المغرب حقوقا مارسوها، حيث كان لهم الحق في ترميم معابدهم. وإعادة تشييدها، ولا يسمح لهم بإقامة معابد جديدة في أماكن فتحها المسلمون، سواء أكانت هذه الأماكن فتحت صلحا، أو عنوة، وفي نظير حمايتهم والدفاع عنهم كانوا مجبرين بدفع مبلغ معين من المال، وهو نفسه الجزية وذلك جزاء إعفائهم من الخدمة في جيش المسلمين ولذلك فإنها لا تؤخذ إلا من الشباب القادر على القتال من غير المسلمين، وتسقط عن العميان والرهبان والصبيان و المجانين وكبار السن، والفقراء، والمعوزين، والجزية لا تجب إلا مرة واحدة في السنة[46].

وأحكام أهل الذمة مستمدة من مصادر التشريع الإسلامي إذ قّرب الإسلام بين أصحاب الديانات الأخرى وبينه، حيث أمر أتباعه بتصديق الأنبياء قبل الرسول، فلم يتهجم على أحد منهم وعليه فحقوق أهل الذمة مضمونة في الدولة الإسلامية ما أقاموا على العهد، ولم ينكثوا، ولم يغدروا فإن خانوا العهود، وحادوا المواثيق، وأحدثوا من الأمر ما فيه نيل، أو أذى، أو اعتداء على مقومات الإسلام العقدية، والسياسية خرجوا من الذمة إلى الحرب والاستجارة، إلى الكيد والتشديد عليهم إلى أن يقطع أذاهم، وأهل الذمة عامة في بلاد المغرب الإسلامي لا يخرجون على هذه الأحكام، حيث طبقت عليهم فاتسمت معاملتهم بالتسامح والرفق، ولم يعامل المغاربة عموما أهل الذمة بقساوة إلا في حالات معينة منها الخيانة[47].

أما الشؤون الداخلية لأهل الذمة فقد تركت لهم بما يتلاءم مع خصوصية وضعهم، وتركت لهم حرية الحكم فيما بينهم حسبما ما ورد في كتبهم، أما أوقافهم فكان مسموحا لهم باستغلالها وفي وقف بعضها على كنائسهم، وشؤونهم، وكانوا يتعاملون مع المسلمين من أهل المغرب بالبيع والشراء والطعام والهدايا، كل ذلك في حدود الشرع الإسلامي[48].

وبسبب القرصنة التي تبادلها المسلمون والنصارى، ونتيجة الحروب الكثير القائمة بين الإسلام والنصرانية، تزايد عدد النصارى في بلاد المغرب الإسلامي، ومنه بلاد المغرب الأوسط نتيجة الحروب التي كانت رحاها لا تقف بين الحماديين والنصارى في الضفة المقابلة من البحر والإضافة إلى هؤلاء كانت هناك جالية

نصرانية، يبدو أنها ذات امتداد تاريخي في المنطقة، وهناك بعض الروايات تذهب إلى القول بأن القلعة عمرتها جالية كبيرة من المسيحيين البربر الذين ظلوا يقطنونها وقتا طويلا بعد إنشاء بجاية. المؤكد أن ثمة طائفة مسيحية كانت تعامل معاملة كريمة عاشت في رحاب الدولة الحمادية بدليل بناء كنيسة العذراء[49].

كما مثلت ظاهرة الارتزاق خاصة لدى المرابطين، موردا هاما عزز التواجد النصراني ببلاد المغرب عامة، ولقد بدأ استعمال النصارى في الجيش المرابطي، منذ عهد يوسف بن تاشفين الذي اشترى منهم نحو مائتين وأربعين ، واستمر استقدامهم في عهد علي بن يوسف ثم ابنه تاشفين، الذي صحب معه زهاء أربعة ألاف مسيحي، يضاف إلى هذه الأصناف من المسيحيين العديد من السبايا، والجاريات الروميات اللائي كن يقدمن إلى المغرب إما عن طريق الأسر، أو بواسطة تجارة الرقيق، هاته التجارة التي وفرت عددا هائلا من الرقيق المسيحي[50].

أما اليهود في الدولة الحمادية فهناك إشارات بوجودهم في قلعة بني حماد، كما تواجدوا في مدينة بجاية الناصرية، حتى أنهم أسسوا مدرسة تلمودية في قلعة بني حماد، وفي هذا إشارة عن الجالية اليهودية بهذه الدولة ، لأنه لا يمكن ظهور مثل هذه المدرسة إلا بوجود أعداد كبيرة من اليهود الذين يحتاجون إلى مثلها للنظر في شؤونهم، وعلاقتهم بالآخرين[51].

كما استقر اليهود في مدن المغرب الأوسط ومنها مدينة تنس الساحلية، وذلك لما تتمتع به المدينة من موقع جغرافي وما فيها من موارد اقتصادية وتجارية، كما استقروا بمدينة وارجلان الواقعة في الصحراء الكبرى، والتي كانت أهم أحد خطوط التجارة بين الشمال الإفريقي، وبلاد السودان، كما استوطنوا مدينة أشير حيث كانوا ضمن المهجرين من متمردي تلمسان الذين نقلهم بلكين يوسف بن زيري إليها وزادت أعدادهم بمقدم إخوانهم من فاس عام 377هـ/ 987م كما أقام اليهود في تاهرت نظرا لازدهار التجارة بها منذ العهد الرستمي، كما أقاموا في تلمسان وقد سكنها مجتمع يهودي شمل ممثلين للعلماء اليهود، والذين أصبحوا حلقة وصل مع يهود المغرب الأقصى، ولقد حصلوا أموالا كثيرة نتيجة تواجدهم بهذه المدينة[52].

هذا وبحكم أن أهل الذمة شكلوا داخل مدن المغرب الإسلامي عامة أقلية بالمقارنة بالمسلمين فقد تجمعوا في أحياء خاصة بهم كما هو الحال في تيهرت، ويعرف دربهم بدرب الدهاهنة، وكانت أكثر أحيائهم قريبة من بيت الحاكم لتضمن لهم الحماية في الوقت الملائم ومنهم من قطنوا بين المسلمين في دروبهم وأحيائهم[53].

غير أن هناك من يفنّد مسألة تجمع أهل الذمة خاصة اليهود منهم في أحياء مستقلة لأنهم لميكونوا في حاجة إلى مثل هذه الأحياء، لأنهم كانوا في غنى عنها فقد عاشوا في ظل نظام الحماية والجوار في كنف القبائل البربرية والقبائل العربية أيضا، إذ أقاموا بين هؤلاء وبين ظهرانيهم، ليكفلوا لهم الحماية خاصة في ورجلان، وتلمسان وأشير من المغرب الأوسط، ويؤكد نظام الحماية أو الجوار على الاختلاط بين اليهود والمسلمين، وينفي انعزال السكان من أهل الذمة داخل أحياء خاصة بهم في بلاد المغرب، ومن نماذج الاختلاط السكاني، توزيع الفطير على المسلمين من جيرانهم في عيد الفطير اليهودي[54].

ورغم كل ما قيل عن روح التسامح التي كان يعامل بها أهل المغرب أهل الذمة، والتي هي من صميم الشريعة الإسلامية السمحاء، إلا أن كتب التاريخ تورد لنا بعض التجاوزات، والحياد عن هذا المبدأ نظرا

لخصوصية تلك الفترة والتي ميزتها الحروب الطاحنة بين المسلمين والنصارى، كذلك انحياز المعاهدين من النصارى لأبناء جلدتهم ودينهم و مبادرتهم للمسلمين بالخيانة والغدر.

وليس من شك في أن سيطرة فقهاء المالكية على الشؤون العامة إبان الحكم المرابطي وخضوع الأمراء لرأيهم والعمل بمقتضى نصائحهم وإرشاداتهم، قد ساهم في نشر جو من التزمت والمغالاة على رأي البعض في معاملة أهل الكتاب[55].

ولعل هذا يعود إلى ظروف تلك الحقبة، التي بلغت فيها الحروب الصليبية ذروتها ، وهذا ما حذا بالفقهاء إلى اتخاذ مواقف متشددة إزاء النصارى، ومن مثال ذلك أن هدم كنيسة غرناطة وقع في نفس السنة التي استولى فيها الصليبيون على بيت المقدس، ومهما قيل عن تشدد الفقهاء والأمراء المرابطين إزاء النصارى ، إلا أنه لم يبلغ درجة القسوة التي عامل بها الأمراء المسيحيون المسلمين الذين تم أسرهم إذ غالبا ما تم الحكم عليهم باعتناق الديانة المسيحية، وإلا أصبحوا في تعداد الرقيق، والعبيد، وكان لسقوط بعض المناطق في أيدي القوى النصرانية، أن انجر عنه مضايقات للمزارعين المسلمين، الذين أثقلت كواهلهم بأنواع الضرائب، ناهيك عما اتبعوه من سلب ونهب لأموال وأملاك المسلمين، وما تلاه من غدر وتهجير جماعي والعبث بمقدساتهم وإهانتها، ولم تسلم حتى النفوس البشرية من عمليات الحرق التي اقترفوها حيال المسلمين[56].

وعلى غرار المرابطين فقد اتخذ الموحدون موقفا صارما من كل أصحاب الديانات الأخرى ومن هذا المنطلق فقد عاملوا أهل الذمة معاملة سيئة جدا، حتى أن عبد المؤمن بن علي أهدر دم المتشبثين بديانتهم من غير المسلمين، مما اضطر جماعة كبيرة منهم على اتخاذ سبيل النفاق بإعلانهم للإسلام وإضمارهم لديانتهم الأصلية سواء كانت يهودية أو نصرانية أو غيرهما، وكان دافع الموحدين في ذلك الوقت هو تخوفهم من خيانة وغدر هؤلاء، خاصة مع الصراع الدامي بين المسلمين، وأهل الكفر في تلك الحقبة سواء في الأندلس أو بلاد المشرق[57].

الهوامش:

1. رضا بن النية، صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر(80هـ-699م / 362هـ- 973م)، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري/ قسنطينة، 2006، ص 70.
2. المرجع نفسه، ص 70.
3. رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، ص 116 .
4. مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار. وصف مكة والمدينة وبلاد المغرب، تع: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د ت، د ط، ص 129.
5. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية- تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، تر: حمادي الساحلي،ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ط1، ص 118.
6. رضا بن النية، المرجع السابق، ص 131.
7. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 130.
8. الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ص 120.
9. إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1998، ص132.
10. عيسى بن الذيب، المغرب والأندلس في عصر المرابطين دراسة اجتماعية واقتصادية 480- 540هـ/ 1056- 1145م، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، 2009م، ص 100.
11. إبراهيم القادري بوتشيش ، المرجع السابق، ص 134.
12. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس- عصر المرابطين والموحدين -،مكتبة الخانجي، مصر،1980م، ط1، ص 330.
13. شرقي نوارة، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين (524- 667هـ/ 1129- 1268م) ، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، 2008م، ص 86.
14. عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م، ط2، ص 239، 240.
15. حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 336، 337.
16. إبراهيم القادري بوتشيش ، المرجع السابق، ص 143.
17. محمود حسن أحمد، قيام دولة المرابطين- صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت، د ط، ص 414، 415.
18. إبراهيم القادري بوتشيش ، المرجع السابق، ص 145، 146.
19. حسن علي حسن، المرجع السابق، ص ص 338، 339.
20. شرقي نوارة،المرجع السابق، ص 92.
21. حسن علي حسن، المرجع السابق، ص ص 339، 341.
22. رضا بن النية، المرجع السابق، ص 123، 124.
23. ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، 1996م، ص 77، 79.

24. رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 131.
25. الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ص 240، 243.
26. ابن حوقل،المصدر السابق، ص 131.
27. الحميري(محمدبن عبد المنعم)، الروض المعطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ط2، ص 126.
28. الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ص 242، 243.
29. رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 131.
30. ابن حوقل، نفسه، ص ص 77، 79.
31. الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ص 245.
32. سورة الأنفال، الآية 60.
33. رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص ص 134، 135.
34. عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 225.
35. رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 136.
36. مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 130.
37. عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 226.
38. رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 140.
39. عيسى بن الذيب، المرجع السابق، ص 352.
40. شرقي نوارة،المرجع السابق، ص 109.
41. بوتشيش، نفسه، ص 65.
42. عطا علي محمد شحاته رية، اليهود في المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين، دار الكلمة، دمشق، 1990م، ط1، ص 20.
43. سورة التوبة، الآية 29.
44. عطا علي محمد شحاته رية ، المرجع نفسه، ص 20.
45. مسعود كواتي، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، دار هومة، الجزائر، 2009م ص ص 81، 82.
46. عطا علي محمد شحاته رية ، المرجع نفسه ، ص21.
47. مسعود كواتي، المرجع السابق، ص 81، 82.
48. عطا علي محمد شحاته رية ، المرجع نفسه ، ص22.
49. عبد الحليم عويس، المرجع السابق ، ص237، 238.
50. ابراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص 68، 69.
51. مسعود كواتي، المرجع السابق، ص77، 78.
52. بشير عبد الرحمان، اليهود في المغرب العربي (22- 462هـ/ 642- 1070م)، عين للدراسات،القاهرة، 2001م ط1، ص ص 43، 47.
53. مسعود كواتي، المرجع السابق، ص103.
54. بشير عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 113، 114.

55. محمود حسن أحمد ،المرجع السابق، ص 419.
56. عيسى بن الذيب، المرجع السابق، ص 72.
57. شرقي نوارة،المرجع السابق، ص 70.